تطلع العرب لفتح الأندلس[1]

بعد أن تمكن موسى بن نُصير من إقرار الفتح في ربوع المغرب العربي، وبسط السيادة العربية الإسلامية إلى حد كبير على القسم الغربي من البحر المتوسط، وتوفرت لديه إمكانات كبيرة تمثلت في القوات البرية والبحرية التي كانت تحت إمرته، كان لا بد له من الإستفادة من هذه الطاقة في فتوحات جديدة أسوة بما كان عليه الأمر في جبهة المشرق، إذ أن التوقف عن الفتح يُعد هدراً لها، وهو أمر تأباه عليه نفسه الطموحة، ويأبى عليه دينه وهو التابعي الجليل.

ونظراً لأن المحيط الأطلسي حال دون اتجاهه بجيوشه إلى الغرب، كما حالت الصحراء الكبرى دون التفكير في توجه تلك الفتوحات إلى الجنوب، لم يكن أمامه إلا الاتجاه شمالاً إلى جنوب غرب أوروبا، وتبعاً لذلك كان من الطبيعي أن تكون شبه جزيرة أيبيريا هي هدفه الأول، نظراً للصلة القوية بينها وبين المغرب العربي كما سبقت الإشارة إليه، من ناحية وللعوامل المشجعة التي بدا يلمسها منذ وصوله إلى العدوة الجنوبية من مضيق جبل طارق لتنفيذ المشروع والتي كان من أهمها تردي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تلك البلاد من ناحية ثانية، فضلاً عن العمل بالمبدأ الذي سبق أن اشرنا إليه بأن أي قوة تظهر في إحدى عدوتي هذا المضيق لابد وأن تعمل على الاستيلاء على العدوة الأخرى حماية لنفسها ولتتحرك في ذلك المضيق الهام من ناحية ثالثة.

ويبدو أن هذه الفكرة لم تولد فجأة في ذهن موسى بن نصير وإنما تكونت لديه منذ وقت مبكر من ولايته على إفريقية، ذلك أنه كان يدرك بأنه الدخول إلى أوروبا من هذه الجهة لنشر الإسلام فيها، أسهل بكثير من الدخول إليها من بابها الشرقي الذي تحرسه الإمبراطورية البيزنطية التي وقفت كالسد المنيع أمام العرب لسنوات طويلة، ذلك لأن هذه المنطقة كان يسودها الضعف والتمزق والإنحلال منذ الاجتياح الجرماني لها ولم يكن فيها دولة قوية تستطيع التصدي لجيوش الفتح العربي الإسلامي.

لذلك ومن قبيل الإعداد لتنفيذ هذه الفكرة وضع حامية كبيرة في مدينة طنجة عندما فتحها مولاه طارق بن زياد بلغت حسب رواية ابن عذاري ٢٩ ألف جندي، وكذلك جوابه لطارق بن زياد حينما كتب إليه يقول بأنه أصاب في ميناء طنجة عندما فتحها ست سفن حيث قال له:

---

[1] ممدوح حسين، محاضرات في التاريخ الأندلسي، مخطوط، الخُمس، ليبيا ٢٠٠٢، ص١٠ ١١.

(أحترز عليها وأتمها سبعاً)[١]. ومن ذلك أيضاً غزوة لجزيرة صقلية في وقت مبكر لعامين متتاليين، وما تبع ذلك من فتح لجزر غرب المتوسط حيث أبعد خطر الأسطول البيزنطي عن شواطئ المغرب وخرق من قواعده في تلك الجزر، وبسط السيادة العربية عليها، فأن هذه الجزر أصبحت قواعد للأسطول العربي الإسلامي، ونقاط إرتكاز له في عمليات الفتح القادمة بوصفه القوة المساندة للقوات البرية في تلك العمليات.

ومن ذلك أيضاً اهتمامه بمعرفة أوضاع جنوب غرب أوروبا بدقة والحصول عليها أولاً بأول من التجار وبخاصة السوريين الذين كانوا يجوبون تلك المناطق منذ زمن طويل والتي لم تكن تخفى عليهم بحكم اتصالاتهم التجارية ليستفيد من المعلومات التي يحصل عليها في وضع خططه في أعمال الفتوحات المقبلة.

وبناءً على هذه المعطيات نستطيع أن نقرر بأن تطلع العرب المسلمين لفتح الأندلس قد بدأ منذ وقت مبكر من ولاية موسى بن نصير على إفريقية، وكان ضمن خطة إستئناف حركة الفتوحات ونشر الإسلام في القارة الأوروبية[٢].

دوافع الفتح العربي الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) :

١- نشر الدين الإسلامي وإعلاء راية الله اكبر في أوروبا وفي البلدان ما رواء البحار

٢- حماية حدود شمال المغرب من الأعداء البيزنطيين وإبعاد مخاطرهم عن المغرب الإسلامي .

٣- إنقاذ المجتمع الأسباني من الظلم والعبودية بسبب سوء أحوال اسبانيا العامة.

٤- الاستفادة من خيرات وثروات اسبانيا الاقتصادية.

٥- نقل حركة الفتوحات إلى جنوب غرب أوروبا تنفيذا للخطة العامة للدولة العربية الإسلامية بوصف هذا الجزء من أوروبا هو الأسهل منالا للعرب المسلمين لصعوبة فتح القسطنطينية من الباب الشرقي التي تحرسه الإمبراطورية البيزنطية .

٦- تلبية لنداء حاكم مدينة سبته الكونت يوليان وأبناء غيطشه الملك السابق وطلب المساعدة في التخلص من حاكم اسبانيا لوذريق واستعادة العرش وقد سهلوا عملية الفتح للعرب المسلمين[٣].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص٦.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٦٤، مؤلف مجهول، فتح الأندلس، دراسة وتحقيق لويس مولينا، ص١١-٣٧، ٤٠ ص٧٠-٨٢.

(٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٧.

خطة ومراحل الفتح

سبق وأن ذكرنا بأن والي المغرب الإسلامي موسى بن نصير من قبل الخلافة الأموية في القيروان (تونس) كان يخطط لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية واتخاذ الإجراءات والخطوات اللازمة ومنها وضع حامية قوية وعدداً من السفن في طنجة وفتح عدداً من جزر البحر المتوسط وجمع المعلومات عن المنطقة إستعداداً لهذا الفتح وأخذ يتحين الفرصة المواتية للتنفيذ.

وحينما أتصل القائد طارق بن زياد[1] بالوالي موسى بن نصير يخبره بعرض وطلب الكونت يوليان[2] حاكم سبتة، رحب بهذا العرض ولكنه سارع بالاتصال بالخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) لإطلاعه وإستئذانه وقد وافق الخليفة على هذا المشروع الكبير وطلب منه أن يختبرها بالسرايا والحملات الاستطلاعية خشية على أرواح المسلمين حرصاً منه على عدم التغرير بهم في بحر كثير الأهوال.

كل هذا يؤكد أن فتح الأندلس لم يكن إرتجالياً أو مغامرة عسكرية وإنما كان وفق خطة موضوعة وبناءاً عليه أتصل موسى بالكونت يوليان وطلب منه أن يقوم هو أولاً بشن الغارة على شبه الجزيرة الأيبيرية قائلاً له كما يذكر ابن عذاري في كتابه البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (أننا لا نشك في قولك ولا نرتاب، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها، وبيننا وبينها البحر، وبينك وبين ملكك لوذريق حمية الجاهلية وأنفاق الدين، فجز إليه بنفسك وشن الغارة على بلاده واقطع ما بينك وبينه، وإذا ذاك تطيب النفس عليك ونحن من وراءك إن شاء الله)[1]. فأعد الكونت يوليان سرية قادها بنفسه وعبر إلى شبه الجزيرة (الأندلس) في مركبين وأغار على الساحل الجنوبي، فسبا وغنم ورجع، ومن الواضح أن هدف موسى من هذه الغارة هو أختبار دفاعات مملكة القوط في الجنوب من ناحيته، والتثبت من إخلاص يوليان من ناحية ثانية حتى قيل أن بعض المسلمين شاركوا في هذه الغارة لهذا الغرض.

ولم يكتف الوالي موسى بن نصير بهذه الغارة الإستطلاعية بل أرسل سرية أخرى في شهر رمضان (٩١هـ/٧١٠م) مكونة من ٥٠٠ جندي أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان بقيادة طريف بن زرعة بن أبي مدرك أو طريف بن مالك فقام بمهمته خير قيام وأغار على الطرف

---

(١) قائد جيوش المسلمين المعسكرة عند طنجة.

(٢) شخصية لا تعرف حقيقة أمرها، فمن قائل أنه كان بربريا وزعيما لقبيلة غمارة، ومن انه كان حاكما لإقليم سبتة باسم الدولة البيزنطية وهناك من يقولون أنه كان ممثلا لملك القوط في سبتة وطنجة.

الجنوبي لشبه الجزيرة وعاد بغنائم كثيرة دون أن يلقىٰ مقاومة ومن ذلك الحين أصبح اسم طريف يُطلق على بلدة صغيرة طريف (Tarifa).

تشجع الوالي موسى بن نُصير بهذه النتائج فطلب من القائد طارق بن زياد بالعبور إلى الأندلس في شعبان ٩٢هـ/ نيسان ٧١١ بحملة عسكرية مكونة من سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر عبروا المضيق، بين ضفتي البحر المتوسط في المغرب والأندلس ونزلوا بصخرة جبل كالبي الذي سُمي بجبل طارق كهدية تاريخية لهذا القائد الذي أسس فيه قاعدة وحصناً عهد في حمايته إلى يوليان ثم فتح قرطاجنة وترك فيها حامية ثم وصلوا مدينة الجزيرة الخضراء ثم سار إلى الجنوب حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة وسار بمحاذاة الساحل ثم ضرب عسكره في منطقة واسعة ذات أراضي سهلية واسعة تكثر فيها المدن سماها العرب الخندق في كورة شذونة ولازالت تحمل ذلك الاسم إلى الآن لاخاندا (La janda) يحدها من الشرق نهر لكة ومن الغرب وادي البرباط حيث أخذ القائد طارق ينظم قواته إنتظاراً للقوط بعد أن سيطر على المضيق وأمن خطوط مواصلاته مع المغرب. أما لوذريق حاكم شبه الجزيرة الذي كان عند عبور طارق إلى الأندلس في شمال البلاد يقوم بإخماد ثورة قام بها البشكنس أو ربما أنصار بيت غيطشه الذي فروا من تلك النواحي من بطش لوذريق فقد عاد مُسرعاً إلى طليطلة حيث حشد جيشاً ضخماً قدرته كما تذكر بعض الروايات بمائة ألف جندي وبعض آخر بسبعين ألف جندي وفريق ثالث ومنهم ابن خلدون[1] بأربعين ألف جندي حيث زحف به لملاقاة طارق بأمر هذا الجيش الضخم كتب إلى موسى بن نصير طالباً منه المدد بقوله: "الغوث الغوث فقد تداعت علينا الأمم"[2] فأمده بخمسة آلاف جندي فأصبحت عدة جيشه (١٢) ألف جندي وقد استشهد فيها أكثر من ثلاثة آلاف شهيد أي ثُلث الجيش وفي ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ/١٩ حزيران ٧١١م اشتبك الجيشان في معركة حاسمة دامت ثمانية أيام وأقتتل الطرفان قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء وهي لم تقع في موضع محدد يمكن أن تسمى باسمه وإنما معركة من طراز جديد بين قوتين غير متعادلتين واستمرت المعركة حتى أنهزم الجيش القوطي بقيادة لوذريق الذي هرب من المعركة وقتل في لورقة ولهذا تحمل هذه المعركة في النصوص التاريخية أسماء كثيرة فهي تُسمى معركة البرباط أو معركة شريش، أو معركة الخندق، أو معركة وادي لكة وأحياناً تُسمى معركة شذونة.

---

(١) انظر العبر، ج٢، ص٦-٧.
(٢) حسين مؤنس، معالم في تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٩٩، ص٢٦٨-٢٧٦.